قانون البلاغة

— ٤ —

قال الاصمعي : البليغ من طبق المفصل ، وأغناك عن المفسر . وقيل للعتابي : ما البلاغة فقال : كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ، ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ . فان أردت اللسان الذي يروق الألسنة ، ويفوت كل خطيب ، فاظهار ماغمض من الامر ، وتصوير الباطل في صورة الحق . واعلم أسعدك الله انه لا يتسع جريك في مضمار البلاغة ، وان كانت القريحة في نهاية الذكاء والثقافة ، الا بالاتساع في دراسة العلوم ، والافتنان في الآداب ، وحفظ مجامع اللغة ، والنظر في احكام الكتاب والسنة ، لتتفقه في لحن المنطق وتتفسح في معرفة الألفاظ ، فلا تبدع في بداهة بل تحول (في خطاب (كذا) او كتاب ابتداء وجوابا عزوب لفظ من اللغة ، او استعجام غريب من القول عليك ، فيكتنفك من الحصر ما اكتنف) عمرو بن مسعدة عند مجادلة الحائك إياه : فانه حكى يوسف بن حماد قال : سمعت عمرو بن مسعدة[1] يقول : كنت مع المعتصم مقدمه من الثغر فلما بلغنا الرقة قال لي : يا عمرو الا تعجب من داود بن سليمان الرجحي[2] بالاهواز وفي بيت المال ونيله الدنيا : عنده اموال مجتمعة وقد كتب الي باشياء لا يعذر مثله في مثلها فاخرج اليه حتى تحمله في الحديد وتنقل ما قبله من المال فخرجت فبينما انا اسير بين دير هرقل

(١) في الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ان هذه القصة وقعت للرشيد مع وزيره عمرو بن مسعدة (راجع ص ١٥٦ من الجزء الثاني طبعة محمد مصطفى فهمي المصرية) وفي العقد لابن عبد ربه انها وقعت للمعتصم مع عمرو بن مسعدة وهو غير صحيح لان عمراً هذا توفي سنة ٢١٧ . وفي هامش النسخة الاصلية هكذا : طبقات الكتاب المشاهير عبدالحميد وابن العميد واحمد بن يوسف واسماعيل بن صبيح وعمرو بن مسعدة . (٢) قوله الا تعجب الى آخره مكان هذه العبارة من كتاب الامامة والسياسة ما نصه : ما زلت تكلمني وتستلطفني في الرجحي حتى وليته الأهواز فقعد في سرة الدنيا يأكلها خضماً وقضماً ولم يوجه الينا درهماً ، فاخرج اليه الخ .

ودير العاقول في وقت الهاجرة في زلال[1] فيه خيش وثلج، سمعت صائحاً ينادي ياملاح صوتاً بعد صوت فلما كثر ذلك عليّ رفعت سجف الزلال، فاذا انا بشيخ حاسر الرأس حافي الرجل على الشط فحملته فلما دعوت بالطعام دعوته فأكل متأدب، فلما رفع الطعام قدّرت انه يقوم كما يقوم العامة من موائد الخاصة، فلم يفعل فاستحمقته فقلت: ما صناعتك فقال: حائك أعزك الله. ثم قال: وانت اي شيء تعمل جعلت فداك قلت: كاتب فقال: اصلحك الله من اي الكتاب انت فانهم خمسة أصناف. قال عمرو فوردتْ عليّ منه طامة ثم قلت له: سمّهم فقال: كاتب خراج، وكاتب رسائل، وكاتب حاكم، وكاتب جند، وكاتب معونة.

اما كاتب الخراج فيحتاج الى ان يكون عالماً بالطسوق[2] والمساحة والمقايسات خبيراً بالحساب. اما كاتب الرسائل فان يكون عارفاً بالاصول والفروع، والفصول والوصول، حاذقاً بالاعجاز والصدور، والفتوح والعهود. واما كاتب الحاكم فان يكون عالماً بالاحكام حافظاً للشروط حاذقاً باختلاف الناس، في الاموال والفروج. واما كاتب الجند فان يكون عالماً بشيات الخيل وحلي الرجال. واما كاتب المعونة اي الشرطة فان يكون عالماً بالقصاص والجراحات والحدود.

فقلت له: فاني كاتب رسائل. فقال لي: أخ من إخوانك واجب الحق عليك، تزوجت امّه كيف تهنؤه، ففكرت ساعة ولم يتجه لي شيء فقلت: لا أكاتبه لانه بالمصاب أشبه فقال: فعزّه إذن، ففكرت ساعة فلم يجئني فيه شيء فقلت له: اقلني من هذا الفن فاني كاتب خراج قال: فان سلطانك بعثك على ناحية، وتقدّم اليك بالعدل والانصاف، وامرك ان لا تدع شيئاً من حق السلطان يضيع، وحذرك ان تُشكى، فأخرجت عمالك، وتقدمت اليهم بالعدل، وحذرتهم ان يُشكوا، فقدم

---

(١) الزلال كغراب ضرب من السفن التي تسير في دجلة كالحراقة والطيار.

(٢) الطسق ما يوضع من الوظيفة على الجربان من الخراج المقرر على الارض وكتب عمر الى عثمان: ارفع الجزية عن رؤوسها وخذ الطسق من ارضيها. وقيل شبه الخراج له مقدار معلوم.

عليك اهل الناحية يشكون عمالك ، فأشخصتهم وسألتهم عن ذلك ، فحلفوا بالله لقد انصفوهم ولقد خشوا ان يكونوا جافوا [١] على السلطان فخرجت الى العمل بنفسك ناظراً ، فوقفوا بك على قراح [٢] لان تمسحه كيف تمسحه ففكرت ساعة وتجاسرت في الجواب ثم قلت : آخذ وسطه ثم آخذ طوله فاضرب به فيه ، فقال : تختلف عليك المطوف ، قلت : آخذ طوله وعرضه من ثلاثة مواضع فقال : ان طرفيه محددان ، وفي تحديدهما تقويس . ففكرت ساعة فاعياني الجواب فيه ، ولم يتجه لي فيه شيء فقلت له اقلني من هذا الفن فاني كاتبُ قاضٍ . فقال : ان رجلاً أحبل حرةً له وسرية فولدتا في ليلة واحدة ، فولدت الحرة جارية ، والسرية غلاماً ، فحملت الحرة الغيرة الى ان حوّلت الابن الى مهدها والبنت الى مهد السرية ، فتحاكمتا اليك ، ما كنت تقضي بينهما فقلت لا علم لي بذلك انا كاتب جند قال : فان رجلين تقدما اليك من اهل عسكر واحد سهمهما واحد . ذا اسمه احمد وذا احمد . هذا مشقوق الشفة العليا وهذا مشقوق الشفة السفلى كيف تُحلّيهما قلت اكتب لها احمد الاعلم واحمد الاعلم . قال : اذاً يأخذ ذا رزق ذا ، وذا رزق ذا ، فتقع بينهما في حيرة ، فتفكرت ساعة فلم يتجه لي فيه شيء . فقلت : لا علم لي بذلك انا كاتب شرطة [٣] قال : فان رجلان تقدما اليك احدهما قد شج موضحة فوثب عليه المشجوج فشجه مأمومةً ، كم تجعل بينهما من الابل قلت : لا ادري فقال : فلست كاتب شرطة ، فقلت فسّر لي ما قلت قال حباً وكرامة . اما الرجل الذي تزوجت امه ، فالوجه ان تكتب اليه ان الاقدار تجري بغير محاب المخلوقين ، والموتُ في عافية خيرٌ من شائبة في الملك ، والله يختار للعبد فخار الله لك في قبضها اليه فان القبور (أكرم) الاكفاء . واما القراح فتمسح اعوجاجه كم يكون قصبة ، ثم تضرب بعضه في بعض ، فاذا استوى في يدك عقد تعرفه ، رجعت الى المستوي فيه فضربته فيه . واما الحرة والسرية فانه يوزن لبنهما فمن كانت أخف لبناً فالابن [٤] لها

(١) لعل صوابه جنفوا على السلطان اي جاروا . (٢) القراح الارض لاماء فيها ولا شجر وقيل المخلصة للزرع والغرس جمعه اقرحة . (٣) قوله كاتب شرطة في هامش الاصل اي ديوان المظالم والشحن وسمي ديوان المعونة ايضاً كما تقدم ذكره . (٤) كذا في الاصل والظاهر فالبنت لها وهكذا في العقد والامامة والسياسة .

واما الجند فيكتب احمد الأعلم مشقوق الشفة العليا واحمد الأفلح مشقوق الشفة السفلى ·
واما الشجة ففي المأمومة ثلاث وثلاثون من الإبل وثلث وفي الموضحة خمس من الابل فيرد عليه ثمانية وعشرين وثلثًا قلت : الست زعمت انك حائك قال : نعم ولكن أحوك الكلام واذا رجل قد أدبه الزمان ، وأحكمه العلم ·

والمعاني اسعدك الله لُمَع ، والألفاظ مشتركة ، فمن سبق الى معنىً ثم جاء بعده من يتعاطاه ، فان أخذه بلفظه كما هو كان سارقاً ، وان أخذه ببعض لفظه كان سالخاً ، وان اخذه وكساه من عنده كان هو اولى به من الاول ·

و يقال ان ابا عُذرة الكلام من سبك لفظاً على معنى ، لا من اخذ معنىً بلفظ ، وقلما تجد شعر شاعر ، اورسالة كاتب ، اوخطبة خاطب ، الا وجدت فيه معنىً مسبوقاً اليه ولفظاً مشهوراً قبله · وقد قال ابو تمام يصف ذلك :

يقول من يقرع أسماعه كم ترك الأول للآخر

فمن ذلك ان اسماعيل بن صبيح كتب الى بعض الامراء : في شكر ما تقدم من إحسانك ، شاغل عن استنباط ما تأخر منه · فأخذ هذا المعنى احمد بن يوسف فقال في بعض كتبه : أحق من أثبت لك العُذر في حال شغلك ، من لم يخل ساعة من برك في وقت فراغك · ثم اخذه سعيد بن حميد فقال : لست مستقبلاً لشكر ما مضى من اياديك[1] ، فأستبطيء درك ما أؤمّل من مزيدك · ثم أخذه حمد بن مهران فقال : لان تعذرت حاجتي قبلك ، لطالما تيسر لي امثالها عندك ، ولست اجمع الى العجز عن شكر ما أمكن ، التسرع الى الاستبطاء فيما تعذر · وسلك الى الطريقة ابو نواس فقال :

لا تحدثنّ اليّ عارفة حتى أقوم بشكر ماسلفا

وقول ابي نواس اربى على جميع ماتقدم في اخذ هذا المعنى · وسلك هذا الطريق من جهة أخرى الضرير فقال : وفد اليّ انك أصبت بشيء من مالك ، لو لم تصب به لأسرعت النوائب اليه ، واتى كرمك عليه ·

وكما انه مطلق لمن لطف في اخذ المعنى فكذلك هو محظور على من لم يكن فيه آلة

(١) خ بلائك ·

الآخذ ان يطور به (١) لان الحاذق والبارع يخفي دبيبه الى الشيء حتى يستخرجه ، والمتخلف البليد يظهر تسوره على الامر اذا أراده ·

اللسان هو ترجمان القلب ، وأداة يدرك بها التأليف ، ويلتمس بها التقطيع ، وبه يظهر ما يجنه الفكر · وقيل في المثل المرء مخبوءٌ تحت لسانه · ويقال : ان روح الحياة اذا كان ظاهراً كان جمالاً ، واذا كان باطناً كان لساناً · وقال علي بن عبيدة : الالسنة (٢) القلوب يؤدي عن ضمائرها المنطق بالفاظ شرايع (٣) ماأستنبطه من الحكمة واللسان كاشف لما يخفيه الاغماض ·

وفي كتاب الموسيقى ان الانسان حاس ، والعقل لطيف ، وليس لفكرة العاقل غاية يدركها اللسان · ومع هذا فان اللسان ترجمان ، وليس للترجمان ان يبلغ منزلة المترجم · وقيل اللسان عضو فان مرنته مَرَن · وان تركته حَرَن · وللسان فضائل بعدمة في الجوارح ، ودرجة عالية على درجاتها ، لما خصه الله به من استعماله في المنطق والبيان ·

قال عمرو بن بحر : في اللسان خصالٌ هو أداةٌ يظهر بها البيان ، وشاهد يعبر عن الضمير ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تعرف به الاشياء ، وناطق (٤) يفصل الخطاب ، وناطق يرد به الجواب ، وواعظ ينهى عن القبيح ، ومُعزٍ تبرد به الاحزان ، ومعتذر يذهب بالضغينة ، وملهٍ يونق الاسماع ، وزارع يحرز المودّة ، وحاصد يستأصل العداوة ، وشاكر يستوجب المزيد ، ومازح تستحق به الزلفة ، ومؤنس يذهب بالوحشة ومزين يدعو الى الحسنى ·

الصوت هو آلة اللفظ ، والذي به يبلغ السامع ما يدركه الفكر ·

الفكر هو مستنبط الحكمة ومستثار الصوت ، ومستوضح غوامض الأدلة ، وكاشف ضباب الغفلة عن الافئدة ·

البيان هو اسم لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك حجب الضمير ، وابدى مكنونه ·

(١) يقال انا لا اطور بفلان اي لاأحوم حوله ولا ادنو منه · (٢) لعله سقط هنا لفظ «بريد» او «ترجمان» او ماماثلها · (٣) لعلها شرائف او شريفة · (٤) لعل صوابه قاض ·

المعاني هي الحادثة بالذكر، المتصورة للعقل، الجائلة في الفكر. وهي بعيدة وحشية، معدومة في حال، موجودة في أخرى، ممتدة الى غير غاية، ومبسوطة الى غير نهاية.

البلاغة هي ان يبلغ السامع أقصى نهاية المعنى الخاطر بقلبك، فتصوره لك كتصوره عندك، بالابانة عنه والافصاح به.

وقيل: الفصاحة لمحة دالة. وقال بعضهم: البلاغة التقرب من المعنى البعيد، والتباعد من حشو الكلام ودنوّ المأخذ، وايجاز في صواب، وقصد الى الحجة، وحسن الاستعارة.

وقال آخر: البلاغة ان يعرف الفصل من الوصل[1]. وقال ثمامة بن الاشرس: قلت لجعفر بن يحيى ما البلاغة فقال: ان تكون تحيط بمعناك. وتحكي عن مغزاك. وتخرجه من الشركة. ولا يستعين السامع عليه بطول الفكرة. ويكون سليماً من التكلف. بريئاً من الصنعة. بعيداً من التقعير. غنياً عن التأويل.

وقال الحجاج لابن القرية: ما الحرف وما الكلمة وما الكلام. فقال: الحرف فرد والكلمة جماعة. والكلام على عشرة أبواب: سبعة فواتح وثلاثة جوامع. فالفواتح جرأة الصدر، وفقدان الحصر، واتساق القول وبيان الكلام، وقلة التنحنح، والقول متى شاء، والوقوف اذا شاء. والجوامع ان يشبه اول قوله آخره، ويختار حسن الالفاظ ويعرف قصة(؟) الكمية. وقال معوية: البلاغة كلام يتحدر على الطبع كما يتحدر الماء على الكبد الحرّى. لا يحمل الطبع فيه على غير مذهبه. فيظهر فيه نقيصة التكلف وعيب التخلق. وقال قائل: عيوب المنطق صنفان صنف مذموم وصنف خلقية[2] لا سبيل الى الانتقال عنها. والمذمومات توجب الذم اذا كان الاقلاع عنها الى غيرها ممكناً. والخلقية كاللثغة واللفلفة[3] والرتة والحبسة والحكلة والفأفأة والتجلجة والتمتمة.

(١) وفي هامش الاصل وقال ابو تمام: حد البلاغة معرفة مواقع الفصل والوصل.

(٢) اي من قبيل العيوب الخلقية. (٣) اللفلفة العيّ و(الرتة) بالضم والتشديد ردّة قبيحة في اللسان وقيل هي العجمة في الكلام كالحكلة. والفأفأة هي صفة الفأفاء وهو الذي لا يقدر على إخراج الكلمة من لسانه الا بجهد يبتدئ في اول إخراجه بشبه الفاء ثم يؤدي بعد بالجهد حروف الكلمة على الصحة هكذا فسرها المطرزي.

ومن فساد المنطق فساد مخارج الصوت مثل البحة وعدم اعتدال المخارج من الحلق والخياشيم والصدر فاللثغة تكون في الراء تنقلب الى الغين اوالياء اوالدال واللفلفة ان ان لا يخرج الكلام الا بشق الأنفس والرتة والحبسة واحد والحكلة كالبحة حتى كأنه يسر كلامه والفأفأة التردد في الفاء والتمتمة التردد في التاء .

وقال عمرو بن بحر : من عيوب المنطق التصحيف وسوء التأويل والخطأ في الترجمة فالتصحيف يكون من وجوه : احدها من التخفيف والتثقيل ، ومن قبل الإعراب ومن تشابه صور الحروف . وسوء التأويل يكون من الاسماء المتواطئة وهو انك تجد اسمًا بمعانٍ فتأوّل بغير المراد ، وكذلك سوء الترجمة . غير ان الكلام المحتمل على المعاني يكون بالفارسية المنقولة الى غيرها . وقال العتابي : الاستعانة من فساد الكلام . فسئل عن التأويل فقال : اذا قال عند مقطع قوله ياهناه ، واسمع مني ، وافهم عني ، وما أشبه ذلك كله عيّ (١) .

ومن لمع صناعة الشعر للاردستاني (٢) وهو محمد بن احمد قال : وكانت العرب انما تفاضل بين الشعر لشرف المعنى ، وجزالة اللفظ ، وصحة المبنى ، فتسلم النسق فيه لمن وصف فأصاب وألطف ، وشبّه فسدّد ، ولمن كثرت له سوائر الأمثال ، وشوارد الأبيات ، ولم يكن يهتم بتبيع البديع اذا حصل له عمود الشعر ، ونظام القريض ، على انه قد كان منهم من يتعمد التنقيح شعره ، ويتعمل لتحسين ألفاظه وتشذيبها ، وترصين مبانيه ومعانيه وتهذيبها ، مثل زهير والاعشى والحطيئة وابي صخر الهذلي وعديّ بن

(١) في الهامش هذه العبارة : وقيل فتل الأصابع والنكت على الارض هو ايضًا من العيّ . (٢) هو غير كتاب معاني الشعر للاشناندانى وفي دار الكتب العربية بدمشق نسخة مخطوطة من هذا الكتاب وقد أورد صاحب كشف الظنون اسم كتابين باسم « صناعة الشعر » احدهما للحسين بن محمد الرافعي المعروف بالخالع المتوفى بعد ثمانين وثلاثمائة والآخر لابي سعيد حسن بن عبد الله السيرافي النحوي المتوفى سنة ٣٦٨ . وقد طبع كتاب الاشناندانى مؤخراً في دمشق (١٣٤٠) والاردستاني نسبة لاردستان مدينة بين قاشان واصبهان في فارس .

الرقاع وابي المثلم والخنساء وغيرهم · فان اثر الصنعة ظاهر في اشعار هذه الطبقة ، ودالٌ على مقاصدهم فيها ، وشاهد بمعرفتهم بها ، ويدل على ذلك افتخارهم في اشعارهم بالتجويد · ووصفهم لمصابرة القول ومكابدة السهر فيه والتخير منه · والصبر على عرضه وعمله حولاً · حتى قالوا : خير الشعر الحوليّ المنقّح · يروى ذلك عن الحطيئة فقالوا : حوليّات زهير · وقد ذكرت الشعراء ذلك في مفاخرهم فقال سويد بن كراع يذكر تقويمه شعره وطول مصابرته له :

ابيت بابواب القوافي كأنما اصادي[1] بها سرباً من الوحش نزعا
أُكالبها[2] حتى اعرّس بعدما يكون سحيراً او بعيداً فأهجعا
اذا خفت ان تروى عليّ رددتها وراء التراقي خشية ان تطلّعا

فاخبر أن القوافي تعتاص عليه وانه يكالبها و يكابدها و يسهر لها الى ان تنقاد له ·
وقال حارثة بن بدر :

قبح الاله الإلف الا مامضى والشعر بعد مرقش ومهلهل
وابي دؤاد او عبيد كلما نطقوا أصابوا فيه فصّ المفصل

فمدحهم بالاصابة والتجويد · وقال عديّ بن الرقاع :

وقصيدة قد بتُّ أجمع بينها حتى أقوّم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه مُنآدها

فأخبر انه يعاود النظر و يكرره حتى يثقفه · وقال عمرو[3] بن هند :

فان اهلك فقد ابقيت بعدي قوافيَ تعجب المتمثلينا
لذيذات المقاطع محكمات لو ان الشعر يلبس لارتدينا

(للبحث صلة)

---

(١) صاداه عارضه يقال (من صاداك فقد صادك) · (٢) كالبه ضايقه مضايقة الكلاب بعضها بعضاً عند المهارشة · (٣) في الاصل (عمرو بن) فجاء بعض النساخ وزاد كلمة (هند) ·